مجموعة قصصية

ظلال

من عيادات النفسية

تأليف

حسين أحمد النقيب

الإهـداء

إهداء من أكثر شخص عادي إلى كل العاديين:-

إلى الذين لم ولن يكتب لهم إهداء يوما ما

إلى الذين يضبطون المنبه ليوقظهم و يغلقوه بمجرد سماعه

إلى الذين لا يقومون من فراشهم بمجرد الاستيقاظ و يظلون به فترة ليستوعبوا أنهم على قيد الحياة

إلى الذين لا يهتمون بتناول الإفطار و لا يهتمون متى و ماذا يتناولون في الوجبات الثلاث

إلى الذين لا يهتمون بتناسق ألوان ملبسهم و لا حتى بارتداء زوج متناسق من الجوارب

الذين لا يهتمون بارتداء ساعة مضبوطة التوقيت و لا يهتمون حتى بتسريحة شعرهم

الذين يراقبون لوحات السيارات في محاولة الحصول على كلمة مفيدة من إعادة ترتيب حروفها

الذين يحبون الظلام و الوحدة و يرفضون الدخول في علاقات من أجل مصلحة ما

الذين يحبون ممارسة كرة القدم بطريقة دفاعية

الذين لا يخبرون أحد بكل تفصيلة من تفاصيل حياتهم على مواقع التواصل الاجتماعي

الذين يشربون القهوة سادة أو مضبوطة في أسوء الحالات و يتحدثون الانجليزية و مع ذلك لا يخبرون أحد بذلك

الذين يحرصون على إلقاء القمامة في سلات القمامة و القاء البشر في سلات البشر

الذين ينظرون في كلا الاتجاهين عند عبور طريق في اتجاه سير واحد

الذين يبتسمون من قلوبهم لكل شخص وقع عليه نظرهم

الذين يحبون الجلوس في الباصات بجانب النافذة

الذين يعلمون أنهم مقصرون في حق أنفسهم و يحاولون التغير

الذين لا يذكرون أحد في غيبته و يحرصون كل الحرص على مشاعر الغير

الذين يكرهون أن ترمى على اعتاقهم مهمة جمع الأجرة في المواصلات

الذين لا يكثرون حديثاً و يكثرون الاستماع

الذين يحبون الجلوس في الشرفات

الذين يداعبون الأطفال في الشوارع و المواصلات

الذين يمررون الأحجار و العلب من بين أرجل بعضهم البعض في الطرقات

الذين يضحكون دون النظر لنظرة غيرهم لهم

الذين يستمعون لكل أنواع الأغاني

الذين يحبون الشتاء و المطر و القطط و لا يفضلون الكلاب

الذين يحدثون أنفسهم كثيراً في أي زمان و أي مكان

الذين لا ينتظرون شيئاً من أحد و يتوقعون كل شئ من كل أحد

الذين يتقبلون كل النصائح و لا يأخذون منها إلا ما ينفعهم

الذين يقرأون و يكتبون و ينامون كثيراً

الذين يفكرون بالماضي و لا يعيشون الحاضر و لا يخافون من المستقبل

الذين لم تراودهم الأحلام منذ نشأة الخليقة

الذين لا يخططون لحياتهم ويبغضون كتب التنمية البشرية

الذين لا يقدرون على وصف ما بداخلهم

..إلى العاديين و البسطاء:اطمئنوا فنحن كثيرون

إهداء خاص

إلى بداية كل شئ ونهايتنا معا..إلى "ر"

إلى شقة "٦" التي هي في الأصل شقة "١٠"

إلى أعضاء مجموعة "النجع" لدى تطبيق "واتساب"

مقدمة..

المريض النفسي ليس مجنونا.

الألم النفسي شعور إنساني زرع فينا-نحن البشر- حتى نشعر به وأي محاولة للتقليل من حجم المعاناة النفسية التي يمر بها شخص ما لا تنم إلا عن جهل كبير.

المؤلف

الظل

(١)

أين أنا؟!

أنا هنا حيث أنني بصدد قرار مصيري يحول بيني وبين فنائي للأبد وتخلدي في نار جهنم وبئس المصير

أنا هنا تحت تلك الشجرة..هي شجرة ضخمة جدا وأنا لا أعرف نوعها حتى ولكنني أحبها ودائما ما أستظل بها،يقول أبي أن تلك الشجرة كانت تنبت زهورا في مطلع شهر الربيع حالها كحال غالبية الأشجار وبطبيعة الحال..تتساقط من على كاهلها الزهور في مطلع فصل الخريف

أما الآن وقد كبرت وشاخت على ما أظن لم تعد تنبت الزهور لسبب غير معلوم!

تلك الشجرة في حديقة منزلنا هي الأكبر في الحديقة وأستطيع أن أقول أنها أكبر الأشجار حجما وعمرا في البلدة أيضا..لتلك الشجرة مكانة خاصة جدا في قلوب عائلتي عامة- حيث يقال بأن من زرعها أصلا كان جد جدي- وفي قلوب أسرتي خاصة.

حينما كنت طفلا ولم أبلغ العاشرة بعد..كنا نجلس أنا وأمي وأبي وإخواني الإثنين تحتها كثيرا

ياللعجب!

أنا أتذكر هذا كأنه حدث منذ ساعات قليلة بالرغم أنه حدث منذ أكثر من ٢٠ عاما،لقد ولد تحت تلك الشجرة أبي وكذلك ولدت أنا وكذلك ولد ابن أخي "زياد"،إن اسمي زياد أيضا!

لقد عشت فترة طفولتي وحيدا نوعا ما ولم يكن لي أصدقاء نهائيا،حتى إخواني الأكبر مني سنا لم يكونوا ليخالطونني في يومي..لم يكن أحد قريب مني سوى أمي!

كيف بدأ الأمر؟!

(٢)

في العاشرة من عمري حيث كنت في الصف الرابع الابتدائي وفي الحصة الثالثة من يوم الأحد كنت وزملاء فصلي ننتظر دخول المعلمة/فدوى معلمة مادة الدراسات وقد كنا نعلم الجدول مسبقا حيث فوجئنا بعدم دخولها الفصل..تلك السيدة الفاضلة التي تكاد أن تكون ملاكا بجناحين لو توفر لها بعضا من ريش النعام،لا تضربنا ولا تعنفنا ولكن تعاملنا بهدوء ونشعر في فصلها بالاريحية الشديدة..كنا نحبها كلنا وننتظر حصتها بفارغ الصبر وتخيم مشاعر الحزن واليأس حينما تغيب ولا نشعر بزوال ذلك الشعور ولا السعادة إلا حينما تعود في الحصة التالية..لقد غابت اليوم فعلا ولكنها غابت بلا عودة..لقد توفيت أمس كما أخبرنا مشرف الدور..لقد كانت تعاني من سرطان الثدي!

بعد أسبوع من وفاتها تم تعيين معلم جديد للدراسات الاجتماعية،ذلك الوغد السادي الذي لا يتكلم من فمه بل بعصى يحمله بيده ولا يكاد يتركه كأنه ولد به من رحم أمه..إنه من

هؤلاء المعلمين الذين يؤمنون بمبدأ "الحسنة تخص والسيئة تعم" فما يكاد يسمع همسا في الفصل إلا ويقوم بمعاقبة الفصل كله بعدة جلدات لكل طفل على يده..لقد كنت أشاهدها على وجهه،تلك البهجة بمعاقبة الأطفال الصغار المساكين.

ذات يوم دخل إلينا ذلك الوغد في حصة احتياطية لغياب معلمها وقد قرر أن يتحدث في بعض المعلومات العامة..كأن يحدثنا عن عجائب الدنيا السبع أو قصص الأنبياء أو عالم الحيوان

تطرق فيما بعد لما يسمى بـ"رهاب الرقم ١٣" وكيف أن شعوب العالم الغربي-بالرغم من تحضرها- تكره ذلك الرقم لأسباب غير منطقية بل ويبغضوه إلى حد كبير ويستبدلونه بالرقم "١٢A"

وأنا بطبيعة الحال تعاطفت وقتها مع ذلك الرقم البرئ الذي لا يخرج عن كونه مجرد رقم لا يجلب الشؤم ولا الخراب ولا الشر بل هو مجرد رقم مثله مثل الأرقام ١١ أو ١٢ أو ١٤ أو أي رقم آخر

ذلك التعاطف بداخلي مع ذلك الرقم دفعني للتفكير بطريقة ما لتكريم ذلك الرقم كنوع من الاعتذار عما بدر من الشعوب الغربية وهنا وجدت الفكرة حيث قررت أنني سأبدأ بالعد من واحد لثلاثة عشر قبل دخولي المدرسة ومن ثم قبل دخولي الفصل ومن ثم قررت أنني سأردد الرقم قبل أن أدخل أي مكان كان..بمرور الوقت كدت أن أتناسى تلك العادة..حتى قررت أن يخفف العبئ عليا بحيث لن أكررها إلا قبل حصة المعلمة/فدوى قديما والمعلم الجديد حديثا..قبل كل حصة دراسات اجتماعية

في الأسبوع الأول فعلتها وفوجئت بعدم حضور المعلم الجديد

كررتها في الأسبوع الثاني وكذلك لم يحضر المعلم الجديد

وهكذا فعلتها في الأسبوع الثالث حتى دخل علينا مشرف الدور يخبرنا بأن المعلم الجديد قد تم نقله حيث انفجر الفصل بصيحات الفرح والسعادة على رحيل ذلك الكابوس..نشأت بداخلي قناعة بأن عدي من رقم ١ لرقم ١٣ قبل البدء في عمل أي شئ يضمن لي تحقيق النجاح فيه وقد كان..كبرت وأنا أحمل

تلك العادة..أعد قبل أي شئ أيا كان في أي وقت وأي مكان سعيا للوصول للعزيز وأقصد بالعزيز الرقم ١٣..

(٣)

بمرور الوقت وكعادة الإنسان فإنه يمل من التكرار،ولأنها كانت عادة تكرارية بالنسبة لي فقد تخليت عنها لمدة يوم أو يومين لا أكثر وهنا نشأ ذلك الصوت الداخلي،البعض يظنه حوارات النفس العادية التي تحدث بالفعل مع أي شخص ولكنها ليست كذلك..إنه شخص آخر على الأرجح يتقاسمني نفس الجسد وهو ثرثار جدا.

إنني أعاني منه أشد المعاناة إن لم أنفذ ما يوسوس لي وأظل في حالة من القلق والتوتر حتى أنفذ ما يطلبه مني..في بعض الأحيان يصل الأمر أن أشعر كأنني أختنق حتى الموت وأفقد القدرة على التنفس الطبيعي حتى أهم بفعل ما يأمرني به.

كان معي في كل لحظة وكل مكان وكان حرفيا كالظل..غالبا ما يمتلك البشر ظلا واحدا عداي أنا الذي أمتلك ظلين!

كان دائما ينفعل علي كلما نسيت العد وصولا للعزيز قبل أي شئ أفعله كسابق عهدي وإن لم أفعل..هيهات..يتملكني التوتر وعدم الراحة وأفقد تركيزي تماما ولا أعود لحالي الطبيعي إلا بعد العودة والعد للعزيز..

بدأ يفرض نفوذه شيئا فشيئا وخلق لي عادات جديدة ليست منطقية ولا تعني أي شئ حتى ولكنني مضطر لفعلها خوفا من غضبه،عادات مثل غسل اليدين كلما سلمت على أحدهم أو لامست أي أسطح أيا كانت ولما سألته عن سبب ما نفعل كان رده:-

-إن هذا يحمينا من الأمراض وخلافه

-لكننا نفعل هذا مع من هم مرضى ومع من هم أصحاء

-كيف تعرف ما إن كانوا أصحاء يا هذا؟

-و أنت كيف تعرف إن كانوا مرضى؟

-إذا الموضوع يخضع للغة الاحتمالات،أنت لا تعلم إن كانوا مرضوا وأنا لا أعلم إن كانوا أصحاء والحل الوحيد لإثبات هذا أو

ذاك هو جر كل الذين نتعامل معهم إلى المعامل وإجراء تحاليل كاملة عنهم وهو الشئ المستحيل حدوثه كما يبدو،إذا ليس لنا خيار سوى غسل اليدين في كل مرة!

..أيضا هو يجبرني على عد الأشياء المتشابهة المتواجدة في مكان واحد،مثلا: عد الكتب التي تخص علم الكيمياء في المكتبة ومن ثم التي تخص علم النفس مثلا..أو عد سيارات التاكسي في الطريق أو عد القطط في الشوارع..الموضوع يكون كعملية إحصاء بلا هدف ولا مبرر.

أيضا أنا أقوم بالتأكد من قفل الأبواب والنوافذ جيدا في كل ليلة من مرتين إلى ثلاثة مرات..إنه معي أينما ذهبت..في الشارع حينما أتمشى على الرصيف يجبرني على المشي على القوالب الحمراء دون المساس بالصفراء ولو أخطأت رجلاي في لمس أحد القوالب الصفراء دون قصد أجبر على العودة وشق الطريق من بدايته..على كل،كل هذه أشياء يمكن تحملها والتعامل معها بشئ من الصبر وأحيانا المقاومة

هذه الأشياء تذكرني بأبي وتصرفاته في بعض الأحيان،حيث كان يعاني من نفس الشئ تقريبا لذلك فلقد كان لدي استعداد جيني ليتقاسم معي ذلك الظل اللعين جسدي

..منذ شهر تقريبا حدث ما كنت أخشاه،حيث صاح ذلك الظل اللعين صيحة مغايرة تماماوتحولت وساوسه البسيطة من مجرد أصوات تناديني لأغسل يدي لصراخ يطالبني بالانتحار!

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل بدأ بشرح فوائد الموت واقنعني بها تماما..من ضمن تلك الفوائد أنني سأتخلص من صوته اللعين للأبد

..بالأمس إتخذت قراري بالانتحار ووضعت تصورا كاملا لمشهد انتحاري،حيث يجب أن يكون انتحار يليق بي وموتا يليق بذلك الظل اللعين..

(٤)

"ليل داخلي

في حديقة المنزل-تحت الشجرة مجهولة النوع

في ظل ترقب النجوم والقمر..يخرج "زياد" إلى الحديقة وفي يديه حبل يحمله بغرض الطيران أو التأرجح من على الشجرة،يصعد رويدا رويدا وبحذر على الشجرة خوفا من أن تكسر رقبته فلا يمتلك القدرة على التأرجح بشكل جيد،يربط أحد طرفي الحبل في أحد أفرع الشجرة والطرف الآخر على شكل سلسلة من الفضة لتلتف حول عنقه أثناء التأرجح ومن ثم يرتديها معلنا الحرب على كل البشر ويفرد جناحيه ويطير في الهواء بالقرب من سطح الأرض ولكنه لا يصل إليه ومن ثم يحلق في السماء"

..حسنا ذهبت لأجلس تحت شجرتنا تلك التي ولدت وأبي وابن أخي تحتها،لقد رحل أبي ولم يتبقى سواي وابن أخي،لم تعد

تزهر تلك الشجرة وكأنها أصبحت عجوز شمطاء..لم تعد تزهر ولكن لها أوراقا خضراء غامقة تلقي بظلها على كل من يجلس تحتها ولكنها لم ولن تخرج الزهور مرة أخرى!

أنا على وشك ركوب الطائرة المتجهة نحو الجحيم،لا أتذكر سوى أنني سأتخلص من صوت ظلي،صعدت وربطت الحبل في الشجرة وارتديته حول عنقي..فردت جناحاي وحلقت في الهواء حيث بدأ النور يخفت شيئا فشيئا ومن ثم انقطع نهائيا حتى أصبحت في ظلام حالك! لابد وأنه الجحيم!

..استيقظت وأنا بين قناطير مقنطرة من القطن على وجهة فتاة يبدو وكأنها إحدى حوريات الجنة! ولكن لماذا ترتدي زي الممرضة؟!

-حمدلله على السلامة يا أستاذ زياد

..آه ها نحن هنا ثانية،ماذا حدث؟! أهو هبوط اضطراري؟

نعم بالطبع،حيث جاء لي أخواني وأمي وقصوا علي ما حدث

وكيف أنني كنت فاشل جدا حتى في ربط الحبل وكيف وجدوني طريح الأرض وعظمي مهشم ونقلوني إلى المستشفى!

..على كل،بالرغم من أنها كانت تجربة قاسية بعض الشئ إلا أنني تخلصت من ظلي بالفعل ونجحت بعدها في نشر أولى رواياتي التي تحمل اسم "الظل" وتحكي عن معاناتي مع ذلك الظل اللعين وحققت نجاحا متوسطا وكانت الأسرة سعيدة بذلك جدا.. حيث أقام لي إخواني حفل صغير في المنزل وحديقة المنزل،على ذكر الحديقة..لقد بدأت تلك الشجرة في حديقة منزلنا في طرح الزهور مرة أخرى وكان لتلك الزهور رائحة جميلة جدا!

..أثناء الحفل وبينما الجميع في غفلة من أمره نسمع صراخ ينبعث من الحديقة لنخرج ونكتشف أن من تصرخ هي إمرأة أخي وهي أم زياد..ولكن ما هذا فوق الشجرة؟!

إنه زياد ابن أخي يريد أن يقفز من فوق الشجرة!

أقلام التجربة

(١)

في كل صباح عندما أستيقظ أحاول أن أبقي ابتسامتي مشرقة على وجهي،ذلك أن أمي أخبرتني يوما ما أنها تحب وجهي جدا حينما يكون مبتسما..ذات مرة أيضا كنت أخبر صديقتي التي هي أيضا خطيبتي بنكتة ما حتى جعلتها تلك النكتة تبكي من الضحك ومن ثم ضحكت أنا بدوري على ذلك الموقف،وقتها أخبرتني أن صوت ضحكتي جميل جدا ونصحتني ألا أتوقف عن الضحك.

دائما ما يخبرني أصدقائي بأنني شخص غريب الأطوار وأن أكبر دليل على ذلك أني شاهدت فيلمي المفضل ثلاثة عشر مرة مثلا،وأنني أستمر في كتابة الروايات بالرغم من أنه لا أحد يقرأها ولا يطلع عليها حتى،أبي يراني فاشل ذلك أنني لم أحقق

حلمه بالالتحاق بكلية الطب،إنني فاشل أيضا في كتابة الشعر كما تخبرني صديقتي..يخبرني وسواسي أيضا أنني فاشل بسبب أنني لا أستطيع حل مكعب الروبيك في الوقت الذي يستطيع طفل ذو ٦ سنوات أو أقل أن يحله في أسرع وقت وبسهولة كبيرة،أمي تنزعج جدا حينما تجد العديد من فناجين القهوة على مكتبي دون التفكير حتى في غسلها!

(٢)

كنت في الثامنة عشرة من عمري وكنت أعاني من الوسواس القهري ولكن وسواسي وقتها كان يبدو من النوع الطيب فهو لم يكن ليدفعني للقتل أو الانتحار ولكن يدفعني لفعل أشياء صغيرة يمكن الاعتياد عليها مثل غسل اليدين في كل مرة أسلم بها على أحد و العفص على الأحجار السوداء دون البيضاء،إنني لم أكن أعاني إذا من وسواسي بل إننا كنا نبدو كصديقين يمكننا التأقلم على وجود بعضنا البعض،إننا مثلا كنا نلعب الشطرنج معا ونحلل مباريات كرة القدم معا وكلانا كان سعيد بذلك.

ولكن الآن أصبح الأمر أكثر صعوبة منذ توقفت عن زيارة الطبيب النفسي بسبب نظراتهم لي وهم يحسبونني مجنونا قد طاح عقله وكأنهم هم العقلاء،لقد تغير الأمر تماما!

لقد خسرت كل شئ تقريبا بسبب ذلك الصوت بداخلي،هجرت المنزل لأنني لم أعد أمتلك تلك الطاقة التي تدفعني لمقاومة نظراتهم لي المليئة بالشفقة تارة و المليئة بالخوف مني تارة أخرى،إنني أبدو في نظرهم كشئ يجلب العار..يحسبونني بالطبع مجنونا!

بالأمس أرسلت لي خطيبتي دبلة الخطوبة ومعها رسالة طويلة تنص على أنها لم تستطع مقابلتي وجها لوجه وأنها غير مستعدة لخوض تلك التجربة معي وقد صلت صلاة استخارة ورأت بأن الأفضل هو الهجران،وعبرت عن حبها الشديد لي بالرغم من كل ذلك،عجبا!

كل من حولي إما أنهم هجروني أو إنني هجرتهم،لم يتبقى لي حد في تلك الدنيا سوى وسواسي،إنه لمن المحزن ألا يكون لك

ملجأ سوى ذلك الشئ الذي لطالما عمل على تدمير كل الملاجئ! إنني أحاوره من وقت لآخر لكي لا أصاب بالجنون،لكي لا أكون وحيدا مثلما أنا موسوس،في أغلب الأحيان تكون إجاباته منطقية ومقنعة..

-ثم ماذا؟!لقد تُركنا هكذا؟

=نعم،كطرقعة الأصابع وكفرقعة العلكة!

-وماذا كُنا؟

=أقلام تجربة!

-ماذا؟!

=أقلام تجربة،تلك الأقلام التي توضع في المكتبات ليتم تجربتها قياساً على أقلام أخرى من نفس النوع،أوتدري ما المخزي في الأمر أكثر؟!أن تلك الأقلام-مهما بلغ جمال خطها-لا تشترى،إنها تعلق فقط هكذا..حتى يجف حبرها

و تلقى في سلة المهملات.

-ماذا تقصد؟!

=ألم تستوعب الدرس بعد؟!

نحن ضحايا التجربة

نحن فئران التجارب؟

(٣)

عن خطيبتي الراحلة،إن الأمر يبدو تماما مثل الذي كاد يموت غرقا وفجأة قد وجد القشة التي هي ملجأه الأخير ليتعلق بها،لتنقذه من أهوال الغرق..ولكن بدلا من ذلك،بدلا من الطفو عاليا،تجذبه تلك القشة لأسفل البحر..في الظلام..في ظلام فراقها..في ظلام الوحدة..

يسخر منّا القدر حينما يهبنا الأمل ويشاهده في أعيننا ومن ثم ينتزعه منا على هيئة دموع

،،يضحك حينما يشاهدنا نقطع وعوداً وعهوداً هو على دراية أننا لن نقدر على الوفاء بها

،،يذيقنا مرارة الفراق والهجران ومن ثم يشاهدنا ونحن نتلوّى ألماً فيزداد ضجيج ضحكاته

،،يرمينا إلى سجن الوحدة ولا يخرجنا منه سوى على وضع أكثر وحدة من ذي قبل!

إنني افتقدها جدا،وددت لو أحادثها،الأمر يصبح أصعب وأصعب وددت لو أقابلها

وددت لو أخبرها بأمور عدة..

عودتي للمنزل في ليالي الشتاء تذكرني بكي..ذلك أن كلاكما كان يشعرني بالدفئ

بعد رحيلكِ لم أتأثر كثيراً وتعافيت منك في أسرع وقت ممكن،لم أعاني من أي اضطرابات ولم تكن الأعراض الانسحابية بالشكل الوحشي الذي تخيلته،ساعدني على هذا عدة عوامل منها

أنني شغلت نفسي بأشياء مفيدة وغير مفيدة أحياناً مثل القراءة والكتابة ومشاهدة الأفلام والمسلسلات بالساعات ولعب الكرة.. حتى أنني تعلمت الشطرنج،

حذفت رقم هاتفك وجميع رسائل الدردشة وكل صورك،حظرتك من جميع مواقع التواصل..حذفت جميع الأشعار التي كنت قد دونتها لكي..حذفت قائمة تشغيل الأغاني الخاصة بي كونها تذكرني بكي وغيرت العطر الذي لطالما أعجبتكِ رائحتهُ

؛الغريب في الأمر أنني لازلت أرى وجهك في وجه كل فتاة أراها،الغريب أنني لازلت أعاني من بعض اضطرابات النوم كلما تذكرت رحيلك،الغريب أنني أراك في كُل حرف أقرأه،الغريب أنني لا أكتب سوى لكِ،الغريب أنه في كُل مرة أرغب في مشاهدة فيلم ما أجد نفسي أشاهد ذلك الفيلم الذي رشحته لي،الغريب أنني بعد كُل مباراة ألعبها أتفحص هاتفي منتظراً مكالمة معتادة منكِ بعد كُل مباراة ألعبها..حتى حينما ألعب الشطرنج أراك في كُل كِش ملك،ذلك أنكِ كنت أعظم انتصاراتي وفي كُل خسارة أخسرها

أتذكر أكبر الخسائر..رحيلك

كلما اهتز هاتفي اهتز معه قلبي ظناً أنكِ تتصلين،الغريب أنني لازلت أدون لكِ الأشعار في الخفاء وكلما استمعت لأغنية تذكرت صوتينا ونحن نغني كُل أغاني الكون معاً..لازلت ألعن ذلك العطر الذي أخبرتني أنك تعجبك رائحته وأتمنى لو أنني نسيت أن أضعه في ذلك اليوم،لا تعودي..لا عليكي،إني أُهذي

نهاية..

وددت لو أخبرك بأنني أصبحت أخشى النهايات جداً

أخاف من أن تنتهي أغنية أستمع لها

أو أن ينتهي فنجان قهوتي

أخاف أن أصل لنهاية شارعنا

وأخاف من نهاية الفيلم

ذلك أنني ذقت مرارة النهايات....تطبق الشروط والأحزان

(٤)

..قررت في النهاية أن أنهي كل تلك الأمور وأتخلص من وسواسي واكتئابي دفعة واحدة!

الأمر الآن أسهل من سابق عهده وليس بخسارة كبيرة بل أنه مكسب،أود أن أنعم ببعض الراحة،أود أن أنعم ببعض الوقت دون تفكير،مقاومتي للانتحار أصبحت معدومة ..أصبحت أتقبل تلك الفكرة بشكل كبير..إنني منفتح جدا لخوض مثل تلك التجربة،وددت لو كانوا كلهم حاضرين عساني أخبرهم..أيا يكن لقد تركت لهم رسالة

"ستبحثون عني في كل مكان تريدون،في كل مكان ترونني فيه،في ابتسامتي الدائمة على وجهي،في ضحكاتي ذات الصوت الجهور،في نكاتي التي أرددها لكم،في سعادتي الزائفة،ستبحثون عني في الآمال الباقية و في حياتي المستقرة.

و لكنكم لن تجدوني لأنني هنا،بين أسطر رواياتي التي لا يبالي بقراءتها أحد،في فيلمي الوحيد المفضل الذي شاهدته ١٣ مرة،في فناجين قهوتي المتراكمة على المكتب،في مكعبات مكعب

الروبيك الذي فشلت مراراً و تكراراً في حله،في قطرات المطر التي تغلغلت بين خصلات شعري المكشوف

في ذرات نفسي الساخن مخترقاً سقيع الجو في ليالي يناير الباردة،ستجدونني في حطام غرفتي وظلامها

في ملابسي السوداء،في أشعاري العبيطة البلهاء،في آمالي و أحلامي الضائعة و قلبي المحطم

في عقلي المشتت و في نفسي التائهة"

لطالما وددت تجربة ذلك الإحساس،الطيران والتحليق عاليا مثل الطيور!

من خلال شرفتي،حيث تبدو الأشياء أصغر..تبدو في حجمها الطبيعي وليس كما كنت أعتقد،ياللحسرة..تبدو الأشياء أوضح حينما تقترب النهاية.

قفزت..الآن وخلال رحلتي نحو اللامعاناة أنا حر من تفكيري!

وسواس سافل

(١)

طوال الوقت أبدو شاردا في شئ ما،البعض يظن أني أفكر في شئ ما أو يعتقدون أنه حبا ألم بي أو أنني مجنون لا محالة،ذلك أنهم لا يفهمون ما أعاني وما يدور برأسي من صراعات لن يحتملها أحد منهم،إنهم يريدون ذلك الشخص العادي الطبيعي الذي يشبههم..إنهم يبغضون الاختلاف ويبغضون كذلك المختلفين سواء كان ذلك الاختلاف سلبي أو حتى إيجابي..

إنني أعاني من ذلك الصوت الذي يمكنك أن تسمع صداه لو دخلت إلى عقلي..ذلك الصوت نفسه الذي يدعونني للقفز من أي نافذة لو صعدت لأحد الأدوار العليا،يبدو الأمر حينها كصراع بين شخصين أحدهما يود القفز والآخر يحاول أن يمنعه بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة..صدقني أنا لا أريد الانتحار فعلا

ولكنها فكرة تسيطر علي قد زرعها بعقلي ذلك اللعين.

تلك الفكرة لا تتوقف فقط على القفز من الأدوار العليا بل وأيضا حينما أتمشى في الشارع..يكون الأمر بمثابة شخص يود لو يلقي بي أمام أيا من تلك السيارات التي تعبر الطريق..ليست أي سيارة ولكنها نوع خاص من السيارات أو يمكنني أن أقول لون خاص..إنني أمتلك رغبة ملحة في إلقاء نفسي أمام أحد السيارات البيضاء بالذات وأتخيل كيف سيكون منظر الدم على الجزء الأمامي من السيارة،كيف سيبدو كبقعة "كاتشب" قد سقطت على قميص أبيض.

تلك الرغبة لا تفارقني أيضا حينما أقترب من أي مسطح مائي..دائما ما أود أن ألقي نفسي بداخله بحر كان أو نهر أو حتى ترعة أو قناة..حينما أقترب من أي آلة حادة أو آلة خطيرة..دائما ما تلازمني تلك الرغبة في ملامستها أو تعريض أحد أجزاء جسمي لها.

على كل،لا تكون كل الرغبات دائما متجهة نحو أذيتي

مباشرة،أحيانا تكون لأذية الغير وبالتالي لأذيتي أيضا،لأنه ما من أحد سيتفهم ما أعاني منه وبالتالي سيرد الأذى الذي سببته له بأذى أكثر منه،مثلا..في أحد المواقف التي تتجلى بها الكوميديا السوداء في أبهى صورها،ذات يوم وكنت عائدا من الجامعة في أحد أتوبيسات النقل العام وقد جلست في المقاعد الخلفية وكان يجلس أمامي رجل أقرع،رأسه شديدة الصلع كأنها صحراء جرداء.. شديدة اللمعان تكاد لو تشع ضوءا وحرارة حالها كحال النجوم! بضربة صاعقة كتلك التي نراها في لعبة الكرة الطائرة..نزلت يدي اليمنى على رأسه..تماما كالصاعقة،صعق الرجل ولا أنسى نظرته بعد في تلك اللحظة التي استدار بها ناحيتي،علمت وقتها أنه ليست رأسه فقط التي تشع ضوء وحرارة غير أن عيناي لم يريا النور بعد تلك اللحظة لأنني تعرضت للإغماء إثر ضربة صاعقة أخرى ولكن على وجهي!

(٢)

كل تلك الأمور في كوم وما حدث لي مع دكتورة جامعية في كوم آخر،لطالما كان تأثير كل تلك المواقف بسيطا نوعا ما لكن هذا

الموقف قد عرقل حياتي كثيرا وكان له أثر سيئ ما بين زملائي ومدرسيني في الجامعة وحتى إخواني!

..كانت الدكتورة "مادونا نعيم" أستاذ الاقتصاد والتي كانت تدرس لي مادة "الاقتصاد الزراعي" في ذلك العام قمة في الجمال والإثارة،ثلاثينية ناصعة البياض ذات شعر قصير الى حد كتفيها..تمتلك عينان عسليتان واسعتان كأنهما عيون المها وأنف بالكاد يستنشق الهواء وشفتان أقرب ما يكون لتلك الشفتين لدى "مارلين مونرو"..طولها متوسط وعودها كأنه البرق!

كانت أنوثتها كلهيب يمشي على الأرض وكحال معظم الطلاب الذين يقعون في حب أساتذتهم وقعت أنا في غرامها!

بالطبع لم أصارحها،إنها متزوجة أساسا من ذلك الوغد الذي يستولي بدوره على ربع جمال العالم ونصف أسلحته الفتاكة،وددت يوما ما لو كنت مكانه بالطبع

..كنت أراقبها خلال المحاضرات خلاف ما كنت أراقب ما تقول أو تشرح وكيف لي أن أركز في مواد دراسية وأمامي كل هذه المشتتات البصرية؟! كان الله في عون هؤلاء الطلبة الذين

يجلسون بالصفوف الأولى على مقربة منها!

..كنت في عامي الرابع الجامعي قبيل فترة الامتحانات لنهاية العام ومن ثم التخرج حينما بدأت تتردد في عقلي فكرة لاذعة قد زرعها ظلي في عقلي بعدما أعلنت الدكتورة أن محاضرة الأمس هي المحاضرة قبل الأخيرة ومحاضرة الأسبوع القادم هي الأخيرة لها معنا!

هنا قد استيقظ ظلي اللعين مقترحا علي فكرة ألا وهي إهداء "مادونا" هدية في آخر محاضرة لها معنا،لم تكن تلك هي المعضلة ولكن نوعية الهدية هي المعضلة والتي لا أعلم ما أثرها على مستقبلي أو علاقتي بالناس حتى..في البداية كنت رافضا تماما حتى بدأ يتسلل إلي القلق والتوتر حتى أنني ما كنت أستطيع أن أنام الليل وهو يوسوس لي "قم واشتري الهدية ولننظر في أمر ما إذا كنت ستمنحها لها أم لا فيما بعد"..بالطبع أعلم ذلك التكتيك الاستراتيجي الذي يستخدمه معي،يقنعني في البداية بشراء الهدية ومن ثم يقنعني لا محالة بإعطاءها الهدية،هو بارع في مثل تلك الأمور..عليه يوما ما أن يعمل في مجال التسويق التجاري لما يمتلكه من قدرة على الإقناع..سيكون

مسوق تجاري بارع بدلا من المتاجرة بي! ظللت حوالي يومين وأنا محاصر بذلك الصوت الحاد الرفيع الذي يسبب لي الصداع ناهيك عن الارق في الليل والقلق في النهار،في النهاية ذهبت لمحل ما واشتريت الهدية وقد اتخذت قرارا بأنني سأعطيها لها أيا كانت النتائج المترتبة على ذلك..

(٣)

في المحاضرة الأخيرة لها كنت حاملا في يدي بعض الكتب وفي اليد الأخرى حقيبة بلاستيكية بداخلها صندوق هدايا بداخلة الهدية بالطبع..قبل بداية المحاضرة ذهبت لمادونا حاملا في يدي تلك الهدية قائلا لها:-

-صباح الخير يا دكتور

-أهلا صباح النور..اتفضل

-في الحقيقة دي آخر محاضرة ليكي معانا ويعلم ربنا انا بكن ليكي كامل الحب والاحترام والتقدير وكنت حابب اقدم ليكي الهدية المتواضعة دي

-طيب ليه التعب ده بس..عموما هديتك مقبولة،شكرا ليك

..كانت الأمور لحد الآن تسير بشكل جيد إلى أن بدأت المحاضرة ومعها بدأت الدكتورة تتحدث في أمور مثل مستقبلنا بعد التخرج والحياة العملية وتلك الأشياء التي يتحدث بها الناس في لقائهم الأخير ومن ثم أمسكت صندوق الهدايا الذي أعطيته لها (هنا بدأ قلبي يدق ويتصبب العرق من أعلى جبيني)

قالت في صوت تملأه السعادة والفرح زميلكم "مصطفى" قرر إنه يجيبلي هدية،أنا مبسوطة جدا منه إنه عمل حاجة زي دي..مش مبسوطة علشان القيمة المادية أو ما شابه..بس حقيقي معنويا هديته دي هتفرق معايا جدا،وعلشان كدة حبيت أشارك معاكم اللحظة دي وأفتح الهدية معاكم"

..نهار أسود مليء بالطين!

تفتح الهدية؟!

هنا؟!

أمام أعين الطلاب؟!

أنا في عداد الموتى لا محالة!

..همت بفتح الصندوق لتخرج منه المفاجأة..(قطعتين سوداويتين من الملابس الداخلية الفاخرة من ماركة (loveGoods على مقاس دكتورتنا الفاضلة تماما)

هنا بدأت الحفلة،كان الطلاب في حالة ضحك هستيرية!

..أمسكت الدكتورة بالميكروفون قائلة بصوت بجعة لا يمت للأنوثة بصلة

-ايه ده يا حيوان

لأرد عليها أنا بكل برود

-ايه؟ اللون معجبش حضرتك ولا ايه؟!

..لم أكن أعلم أن هدية مثل هذه ستكلفني أعوام أخرى في الجامعة! وليس فقط كذلك بل سيتسبب لي في مشاكل عدة فيما بعد مثل عدم قبولي في وظيفة ما بسهولة!

مكالمة الصباح

(١)

تبدو الحياة في غاية الصعوبة إن قررنا أن نخوضها بمفردنا..بالحديث عن نفسي لم أتخذ هذا القرار بعد،لن يكون من السهل علي أن أخوض حياتي بمفردي،إنني لازلت أعيش مع والدتي في نفس الشقة،أشعر بالاطمئنان جدا وأنا أقيم معها بين نفس الجدران،حتى أن هنالك بعض الأشياء المزعجة تشعرني بالاطمئنان..أكثرها ازعاجا هي "مكالمة الصباح" التي تعطيني شعور الاطمئنان بنفس المقدار الذي تزعجني به!

في كل صباح أستيقظ على صوت أمي وهي تحادث أختي كالعادة فيما اسميه "مكالمة الصباح"..إنها أطول مكالمة هاتفية ستسمعها في حياتك حيث تستغرق من ثلاث ساعات حتى عدة

أعوام..تتبادلان فيها الحديث عن عدة أشياء لا تربطها صلة،حيث يبدأ الحديث بسؤال وجودي "هتعملي ايه على الفطار؟" ويمر الحديث بعد ذلك بعدة مستويات فلسفية مثل السؤال عن كيفية "تقوير الكوسة" والدفاع عن حرية المرأة وحقها في ممارسة الحياة السياسية حالها كحال الرجل،على كل..أنا سعيد جدا بوجودهم في حياتي حيث لم يتبق لي سواهن بعد أن رحلنا عن القرية وتوفي أبي،أنا لم أتزوج بعد وتعد هذه نقطة خلاف مابيني وبين أمي حيث لا تشرق شمس يوم إلا وتحدثني فيه عن فتاة وكيف تبدو قمة في الجمال وطريقتها الرائعة في "تقوير الكوسة"!

أمي قد نصحتني أيضا بالذهاب لطبيب نفسي لأنها لاحظت في الآونة الأخيرة أنني أحادث نفسي كثيرا وأتحدث مع أشياء وأشخاص هم غير موجودين بالواقع وأصبحت أفقد التركيز كثيرا خلال ساعات يومي المحدودة،وهي محدودة لأنني أقضي أغلبية يومي نائما!

(٢)

بالحديث عن أمي فهي لم تخذلني يوما إلا مرة واحدة،منذ ولدت لم تخذلني أبدا..في صغري لم تسمح للحليب الساخن أن يحرق لساني وكانت تغامر بلسانها كي تقيس مدى حرارة الحليب،كانت تدافع عني في كل مرة يضربني فيها أبي ولو كنت مخطئا..حينما كان يعنفني أبي ويأخذ الكرة مني لكيلا ألعب في الشارع..كانت تضحي بأن تقع في معضلة أخلاقية وتسرق لي الكرة من أبي لكي أستمر باللعب،حينما كنت لا أحصل على أعلى الدرجات في المدرسة..كانت تشاركني تزوير الدرجة قبل أن يراها أبي،أتذكر أنها باعت قرطها الذهبي لكي تشتري لي دراجة يوما ما،وكانت في كل مرة تخبز الخبز تعد لي رغيفا صغيرا.. فلا يجرؤ أحد في المنزل على أن يلمسه حتى أبي..أتذكر في تلك الليلة شديدة البرد حينما كنا عائدين من أحد الأفراح وكنت أرتعد من البرد أنها انتزعت وشاحها من فوق رأسها ووضعته فوق رأسي،في وجودها لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب من نصيبي في كل مأكول أو مشروب يأتي للبيت..في المجمل وطوال حياتها لم تخذلني أبدا على عكس باقي البشر إلا مرة واحدة!

(٢)

منذ شهرين كانت قد نظمت الجامعة حفل تخرج دفعتنا وحددت يوم ٢٨ فبراير موعدا للحفلة وكحال زملائي طلبت من أمي أن تحضر معي حفل التخرج هي وأختي لأنهما الباقيان لي من الدنيا

في البداية رحبت بذلك وكنت أرى في عينيها لمعة الفرح والفخر..حتى أنها بكت من شدة الفرحة وذهبنا أنا وهي وأختي لمحلات "PRADA" لنشتري بعض الثياب التي تناسب أجواء الاحتفال ولكنها غيرت رأيها بعدما عدنا من الخارج وقد اشترينا الثياب،ظللت طوال الليل أحاول إقناعها ولكن كل محاولاتي انتهت بالفشل..لازلت لا أعلم سبب رفضها حتى،هي لم تعطيني مبررا واحدا لرفضها حضور الحفل بالرغم من أنني ابنها الذكر الوحيد وأن أبي قد توفي ولا أمتلك من يأتي معي لحفل التخرج سواها!

تحدثت مع أختي بشأن ذلك الموضوع باحثا عن مبرر،هل

أخطأت في حق أمي دون أن أدري؟

هل هي مريضة لذلك لا تستطيع الذهاب معي؟! لم أجد أي إجابة لا مع أختي ولا لدى المنطق!

و لأني لم أعتد أو أتوقع رفضها ذلك حزنت جدا وقررت عدم الذهاب لحفل تخرجي من الأساس وحزنت من قرارها جدا وظللت طوال اليوم في غرفتي ولا أتحدث إليها ولا نتشارك الضحك معا حتى أتت إلي وصالحتني،وفي اليوم التالي تقرر تأخير ميعاد الحفلة ليوم ٣٠ فبراير..ذهبت إليها مرة أخرى وطلبت منها أن تأتي معي هذه المرة وبعد عدة محاولات مني ومن أختي أخيرا وافقت ولكن بشرط أن آخذ بنصيحتها وأعود لطبيبي النفسي!

(٣)

لم يكن لدي يوما مشكلة مع ذلك الطبيب ولكن ما يصفه لي من أدوية هو المشكلة،حيث يصف لي تلك الحبوب الغبية التي تسبب لي الهلاوس وثقل السمع..لدرجة أنني ما عدت أسمع

صوت أمي وهي تحادث أختي في كل صباح..لم أعد أراها أيضا في الشقة،تلك الحبوب تثير جنوني بالفعل لذلك توقفت عن تناولها فورا حتى عادت كل الأمور لمجراها الصحيح وعدت أسمع أمي مرة ثانية!

بدأ الطبيب يلاحظ تدهور حالتي على حد تعبيره وسألني إذا ما كنت مستمرا في تناول الأدوية التي سبق ووصفها لي فأجبته بأنني أتناولها بانتظام..ولكن في كل مرة كان يلاحظ تدهور الحالة أكثر فأكثر ويسألني نفس السؤال حتى أجبته بأنني توقفت منذ فترة وأنني كنت أكذب عليه طيلة الأيام السابقة،كنت أشاهد الغضب في عينيه..كانتا تشعان نارا،سألني عن سبب توقفي الغير مبرر ولكنني بررت له فعلتي أن تلك الحبوب تسبب الثقل لأذني فلا أسمع صوت أمي في الصباح وهي تهاتف أختي وهنا خرج عن شعوره ذلك المجنون اللعين ليخبرني أن أمي قد توفيت هي وأختي في حادث سيارة ونحن عائدون من محلات "PRADA" بعدما اشترينا ملابس حفل التخرج!

ضربت ذلك الطبيب المعتوه وخرجت من العيادة وقد اتخذت

قراري بعدم العودة له مجددا،أخبرت أمي بذلك أيضا!

سألتها عن سبب طلبها ذهابي لطبيب نفسي وأخبرتني أنني أعاني من الفصام..إنها غير موجودة بالفعل وأن الطبيب كان على حق تماما..حسنا،هي تنعتني بالمجنون الذي يعيش في عالم غير عالمه..اللعنة على عالم ليست به أمي،مرحبا بالجنون لو كان سيبقيني معك في نفس المنزل،لو كان الأمر كذلك حقا فأنا مجنون وأنا فخور بذلك!

"إن كوكب الأرض هالك لا محالة لو غابت الشمس"

انشقاق

الساعة السابعة مساء

عيادة الأمراض النفسية..

ـ من المتحدث الآن؟

=آينشتاين يتحدث

ـ تفضل..معك الميكروفون

(١)

الاكتناز القهري..إنها تلك المتلازمة النفسية التي تجبرك على اقتناء أشياء بحجة أنها مهمة أو أنه سيكون لها أهمية في المستقبل القريب أو البعيد،ذلك هو النص الذي قرأته كتعريف الاكتناز القهري بعدما قال لي صديقي "رذرفورد" أنني أعاني

منه وأنا أعتقد أيضا أننا أعاني من تلك المتلازمة،إنني أقوم بجمع أشياء غريبة حقا،على سبيل المثال..أنا أمتلك مثلا ما يزيد عن المائة قلم المختلفة أشكالها و ألوانها بالرغم من أنني لا أستخدمها بتاتا،أمتلك أسنانا أو ضروسا لكل أفراد عائلتنا تقريبا بالرغم من أنني لست بطبيب أسنان مثلا،وكذلك الحال بالنسبة لأشياء عدة كالكتب والأحذية وأوراق الكوتشينة وغيرها الكثير والكثير،وليس بالضرورة حينما أجمع شيئا أن أمتلك عددا كبيرا من الشئ نفسه،أنا اكتنز الأشياء بغض النظر عن عددها!

هناك قاعدة أساسية عند جمعي للأشياء وهي أنني أحبها جميعا،أي أنني أحب أي شئ أجمعه واحتفظ به وإلا ما كنت لأحتفظ به.

بجانب تلك الهواية أنا أحب كرة القدم جدا وعلى ذكر كرة القدم فأنا سألعب الكرة مساء اليوم مع "رذرفورد"،إنني ورذرفورد نفعل كل شئ مع بعضنا البعض،منذ الصغر ونحن في فصل واحد نجلس في نفس المقعد ونقيم أيضا في نفس الشارع،نلعب الكرة مع بعضنا البعض في نفس الفريق ونأخذ دروسنا الخصوصية مع

نفس المدرس وفي نفس المجموعة لدرجة أننا ندرس منهج الفيزياء مع بعضنا البعض عند أربعة من المدرسين المختلفين!

في المساء وقد كنت نائما آخذ غفوة وقد فعلت الوضع الصامت لهاتفي أستيقظ على صوت "رذرفورد" وقد رشق رجله في ظهري بعدما اقتحم غرفتي قائلا "يتبقى على موعد المباراة ١٠ دقائق فحسب"..هممت واقفا وأخذت ملابس الكرة وانطلقنا نجري نحو الملعب.

لعبنا المباراة وكعادة مقدسة عند الشاب المصري بعد مباراة كرة القدم ذهبنا نشرب عصير القصب ومن ثم ذهب كل منا نحو منزله لنستحم وننام حتى نستيقظ باكرا ونذهب لحصة الفيزياء عند المدرس رقم ٣!

...

استيقظت في الصباح على صوت المنبه على غير العادة،فلقد أعتدت أن أستيقظ على مكالمة من "رذرفورد" لأنني دائما ما أنسى نفسي خلال النوم..حاولت أن أتصل مرارا وتكرارا بذلك الوغد

ولكن بلا فائدة لأنه لا يجيب..لبست ملابسي وذهبت نحو منزله وسألت والدته عما إذا كان قد استيقظ من النوم لتجيبني بلا وتطلب مني أن أذهب لغرفته أوقظه..صعدت ومن ثم ضربت الباب برجلي ودخلت أحاول إيقاظه مرارا وتكرارا ولكن بلا فائدة..إنه لا يستيقظ!

لقد مات "رذرفورد"..لا أتذكر سوى صراخ أمه في بداية الأمر ومن ثم قد انقطع الصوت من حولي ولم يعد عقلي يستوعب أي شئ.

مر اليوم الأول بعد وفاته ومن ثم الثاني والثالث،لا شئ يشغلني عن التفكير بصديقي الراحل،كيف لا وقد كنا أقرب شخصين لبعضهما البعض..كنا نقضي خمس وعشرين ساعة من ساعات اليوم الأربعة وعشرين سويا،نأكل سويا ونشرب سويا ونذاكر ونلعب بل وننام في مكان واحد سواء في بيتي أو بيته،إن حصولك على شخص واحد صادق صديق في هذه الدنيا لهو بمثابة الدنيا كلها..شخص واحد فقط يكفي لأن تخوض به الدنيا بما فيها..كان "رذرفورد" يعطي للدنيا معنى!

أما الآن وقد رحل فلقد فقدت الدنيا معناها

...

كنت أذهب له في قبره كل ليلة أحدثه في بعض الأمور..

مرحباً يا صديقي!

كيف حالك؟

وددت لو أُخبرك يا صديقي بأمور عدة

الأمر يزداد سوءاً و تعقيداً،لا أقوى على مشاهدتي و أنا أنهار يوماً بعد يوم

أشتاق لأيامنا حينما كنا سعداء و أشتاق لأيامٍ حينما كنا نتظاهر بالسعادة أيضاً..أما الآن فلا أستطيع التمثيل،لقد ذهبت موهبتنا اللعينة،أشتاق لأيامٍ كنا أساساً!

أشتاق لتلك الأيام؛قبل أن أعلم أو أعرف شيئاً..نعم أشتاق لأيام جهلي..أياك يا صديقي أن تعلم..أنا هنا و أشير لك أن

المعرفة هي أساس كل شقاء

أشتاق لفترة لم أكن فيها من الضهر شيئاً مذكورا،لا أعلم ماذا دهاني و لكنني أعتقد أنني أُسرتُ في فترة زمنية لعينة لا أقوى على الخروج منها..أن تسجن في زمان أسوء مئات المرات من السجن في مكان ما

الآن و حينما أُغمض عيناي أشعر و كأن عيناي قد قلبتا حتى تريا ما بداخلي فلا تريان سوى الظلام الحالك

أتدري يا صديقي؛

لقد كذب علينا مدرسو الفيزياء!

..قالوا لنا مُذ كنا صغاراً بأن الثوان كلها متساوية

وأن كل الأمتار بنفس الطول

وأن كُل الكيلوجرامات بنفس الكتلة

أخبرونا بأنها ثوابت ولا يمكن أن تتغير

..كبرت يا صديقي وها أنا أخبرك بأنهم كذبوا علينا

،الثواني التي تمر إبان فترات حزننا طويلة جداً،تقترب من الألف سنة مما يعدون

،الأمتار التي نخطوها نحو أحبابنا لتوديعهم تبدو وكأنها كيلومترات

،الكيلوجرامات التي أخبرونا عنها لا تقارن بثقل حزني الآن

..الحقيقة الوحيدة هي أنه لا توجد ثوابت!

مرت أربعة أيام على موت "رذرفورد"

بدأت أفكر فيما سيحدث لجسده في الفترة المقبلة،ستبدأ الديدان في التهام جسده شيئا فشيئا إن لم تكن قد بدأت بالفعل في ذلك،يتآكل جسد "رذرفورد" حتى آخر خلية في لحمه..حتى لا يتبقى سوى العظام!

علي أن أفعل شيئا،علي أن أنقذه من التآكل والهلاك..علي

أن أكتنزه،بالفعل أخرجت جثمانه من القبر وأنا أحتفظ به الآن في غرفتي!

ـ هل انتهيت؟

=نعم

×××××

ـ من المتحدث تاليا؟

= أنا فرانس كافكا

ـ تفضل..معك الميكروفون

(٢)

بدأت القصة حينما كنت في حصة كيمياء في العام الثالث من الثانوية العامة،حينما نظرت خلفي بالصدفة وإذ بي أجدها تراقبني،كادتا عيناها أن تلتقطاني لأغرق بين أمواجهما..ظللت أنظر لعينيها ما يزيد عن العشر ثواني ليلاحظ ذلك مدرس

الكيمياء ويقرر معاقبتي بسؤالي عن أحد تعريفات المنهج،حيث سألني عن تعريف "النظام المتزن"..حسنا أنا أعرف التعريف جيدا ولكنني لا أذكر سوى عيناها الآن..هم المدرس بتعريف النظام المتزن على أنه "نظام ساكن على المستوى المرئي وديناميكي على المستوى غير المرئي"..أمتأكد أنت من أنه تعريف النظام المتزن وليس تعريف لحالتي الآن؟!

أنتهت الحصة وذهب كل منا إلى منزله إلا أنني عدت ناقصا جزءا ما،لم أعد بذلك الجزء الذي تعلق بين جدران الفصل! لا أدري من المسؤول الآن عن ضخ الدم!

ظللت طيلة الأسبوع أتذكر تلك النظرة وأبتسم ابتسامة عريضة في الخفاء،كنت أعد الأيام حتى تمر وأذهب حصة الكيمياء التي أبغضها كل البغض،على كل،إنها الحصة المفضلة لي الآن!

مر أطول أسبوع في حياتي وذهبت لتلك الحصة وأنا هائم على وجهي لأرى تلك النظرة مرة أخرى،آه ثم آه،ماذا سأفعل؟ إنني لن أغادر اليوم بغير الحصول على طريقة لأتواصل بها

معها،إنني على استعداد لأبوح بكل ما داخلي لها..حسنا،إن ذلك ما يسمونه بالحب من النظرة الأولى،لطالما سمعت عنه ولكنني الآن قد مررت به.

بعد عدة أيام تمكنت من الحصول على رقم هاتفها بطريقة ما،لم يستغرق الأمر سوى ثلاثة أيام لأعترف لها بحبي وأنني أود في يوم ما أن أشاركها جيناتي الذكية لترد لي بالقبول..تحدثني عن أسعد لحظات حياتي؟ إن تلك اللحظة تأتي في مقدمة ترتيب تلك اللحظات القليلة التي تعد على أصابع اليد.

إننا الآن نتحدث خلال الهاتف المحمول ما يزيد عن الست أو السبع ساعات خلال اليوم،نتشارك أدق تفاصيل يومنا،تحدثني عن حبها للشاي بالنعناع وأحدثها عن مدى حبي للتين،تحدثني عن تفضيلها للون "التركواز" على اللون "الليلاه" وأحدثها عن تفضيلي له أيضا،في الحقيقة أنا لا أعلم سوى أسماء ٦ ألوان ولكنني أجاري الموقف،كنا نتحدث في تفاصيل التفاصيل وفي توافه التوافه لتنتهي المكالمة على صوتها وهي تحدثني عن حبها لي وأنا أحدثها عن عشقي لها.

كانت أعمارنا في مقتبلها ولم نكن ذوي خبرة بالعلاقات العاطفية وبطبيعة الحال بدأ ظهور المشاكل في علاقتنا ولم نكن ندري كيف نتعامل مع تلك المشاكل،لم تكن لتتنازل ولم أكن لأفوت أمرا حيث ظهر التعصب والعناد في العلاقة ولكن ذلك لم يمنعنا من أن نكمل بالرغم من أن علاقتنا أصبحت كتلة من العقد ولكننا لازلنا مصرين على استكمال وخوض تلك المغامرة.

استمرت علاقتنا لمدة ٤ سنوات خلال فترة بأكملها،كنا نخرج كثيرا خلال تلك الفترة ونذهب للسينما و نتمشى على "الكورنيش" ومن ثم نجلس بجانب أسدي قصر النيل حيث أصبحنا صديقين مقربين منهما وكنا نشاركهم "حمص الشام" أحيانا.

...

قبل فترة تخرجنا بأيام قليلة حدثت حادثة حيث انفجرت أنبوبة الغاز في شقتهم وكان حادثا أليما راح أثره والدها ووالدتها وكانت هي الناجية الوحيدة!

حضرت العزاء وقتها ولكنني لم أرها خلال العزاء!

حاولت بعد ذلك ولمدة عشرة أشهر التواصل معها أو التوصل إليها ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل،إننا لا أدخر جهدا في البحث عنها دون فائدة،إنني لم أعد أراها سوى في أحلامي فقط!

إنني حينما أتذكر ذكرياتنا معا أبكي بالرغم من أن تلك الذكريات سعيدة،مؤخرا لم تعد تأتيني في أحلامي،لذلك كان لابد من تحرك!

إنني أعلم أنه ليس لها مأوى سوى تلك الشقة التي كانت تقيم بها مع والدتها ووالدها،لذا أجرت شقة تطل نافذتها مباشرة على نافذة شقتها لعل وعسى تظهر من جديد لتطل من النافذة مرة أخرى أو لتبيع الشقة،وبالفعل أجرت شقة حيث جرت الأمور كما خطط لها،بعد شهرين تقريبا وفي ذكرى الحريق ظهرت عبر النافذة وكانت تبدو عليها علامات الحزن وشدة التأثر بالحادث،لم أستطع تمالك نفسي وفتحت النافذة لنتبادل النظرات مرة أخرى كما اعتدنا وتشرق شمس تلك البسمة على شفتيها ولكنها سرعان ما تتبدل ملامحها وتغلق النافذة.

فكرت في أن أذهب لها الشقة ولكنها الآن تقيم وحدها ولن

يكون اللائق فعل كهذا فخطرت لي فكرة أن أرسل لها جوابا فهممت بأخذ قلم وورقة وبدأت في الكتابة:

"كم أحببت السير في الشوارع ليلاً و الجلوس بجانب أسدي قصر النيل و التآنس بالنظر للنيل نفسه

عشقت كل وحدة من مكان و عشقت كل وحدة من الزمن كنتي معي بها

أما الآن و قد رحلتي لم أعد أُبالي

لم أُعد أُحب تلك الأماكن..أدركت أنني لم أكن أُحبها من الأصل..حتى أنني أدركت كرهي الشديد لحمص الشام!

لقد كنت أُحبك أنتِ!

أخبريني يا ميلينا!

كيف تذرف العيون دماً بدل الدموع؟

كيف يحزن المرء من ذكريات سعيدة بالأساس؟

أجيبيني!

لما لم تعودي تزورينني في أحلامي؟!

أحزينة أنتِ أم أنكِ سئمتِ كوننا نتقابل بالأحلام فقط؟

فسري لي!

لماذا قد اختفت النجوم من سماءنا،لماذا لم يعد بها سوى الغيوم؟

ما كُل هذا الضباب بيني وبينكِ؟

أخبريني متى تمطر..أخبريني متى نعود؟"

...

..مر على إرسال الجواب ثلاثة أيام،لم أنم خلالها،لم أفعل أي شئ يذكر سوى مراقبتي لتلك النافذة اللعينة،لم تفتح خلالها النافذة ولم أسمع باب الشقة يفتح!

سأذهب قاصدا الشقة غير مبالي للبشر.

هبطت للشارع قاصدا الشقة،ذهبت أمام باب الشقة وكان مليئا بالغبار كأنه لم يفتح منذ سنوات،طرقت الباب عدة مرات

ولا أحد يجيب،ضربت الباب بقوة ولا أحد يجيب!

يتدخل البواب سائلا عما أريد فأستفسر منه عمن يقيم في تلك الشقة فيرد على بأنها الآن خالية وأنه كان يقيم بها أب وأم وابنتهم وتوفي ثلاثتهم في حريق منذ عام!

*****

..إنهما شخصيتين من عشرات الشخصيات التي تعيش بداخل عقل الأستاذ "س" الذي يعاني من اضطراب الهوية الانشقاقي،المثير في الأمر أن هاتين الشخصيتين تعاني كل منهما من مرض مختلف أيضا..حيث يعاني "آينشتاين" كما يحب أن يسمي نفسه من الاكتناز القهري أحد أشكال الوسواس القهري،بينما يعاني "فرانس كافكا" من الشيزوفرينيا!

بعد الآوان

(١)

تشرق الشمس فتلقي بضوئها علي،يظهر في الغالب للجميع ظل واحدا على عكسي تماما..يظهر لي ظلين!

أنا وذلك المعتوه بداخلي دائما ما نخوض الحروب الداخلية ونتطاحن حتى تتهدم الأعصاب،في أغلب الأيام..أعاني من الأرق ولا أستطيع النوم،قد يمتد الأمر من يوم إلى عدة أيام.

يمتلك ظلي شخصية تحليلية بحتة قادرة على تحليل كل ما يدور حولي ومن ثم التعليق عليه بل ويصل الحال به لخوض حوارات مع الأجمدة..البارحة وقد رقدت في سريري محاولا النوم،خاض ذلك المعتوه حوارا مطولا مع سقف غرفتي،بدأ السقف اللعين الذي لا يهدأ الحوار بأنه قادر على قتلنا بسقطة واحدة أو مجرد إفلات المروحة من بين يديه ليرد عليه ظلي بأنه

لا يستطيع فعل ذلك لإنه مجرد جماد لا يملك قراره بل تحكمه ظروف مختلفة من حوله..كنت مجرد شخص ثالث يستمع فقط ولم يطلني الحوار وفي مشهد تراجيدي عظيم يشير لي السقف بأنني لا أمتلك قراري أيضا وأنني مجرد مواطن مقيم في ذلك الجسد المتعفن جسدي..قد خضع بلا حرية قرار لبطش وديكتاتورية ظلي..كان السقف يرى بأننا متشابهين جدا،كلانا لا يمكلك قراره..حالنا كحال باقي قطع الأثاث من دولاب وسرير وكتب ومروحة،هنا تتدخل المروحة وتنكر ذلك بكل ما تملك من قوة وعزم ودوران في اتجاه واحد بأقصى سرعة ممكنة معللة أنها قد تشبه أثاث المنزل في كونها جماد ولكنها على عكسي تماما قد وجدت من ينقذها من الخوض في ظلمات السقوط..كانت تتغزل في السقف وتنعته بكلمات مثيرة للاشمئزاز مثل "ضهري" و "سندي"..يالها من علاقة مقرفة حقا،هنا يتدخل ظلي في محاولة للرد على تهكم المروحة علي ناعتا إياها بالراقصة ذات الخمسة مستويات..بائعة الهواء..من تهوى "اللف والدوران" ومن ثم توجه نحو السقف ليعطيه منابه..أيها السقف اللعين،يالك من ديوث كبير..أنت حتى لا تقوى على أن ترفع رأسك،قد سخط الله

عليك وجعلك مثل الخنازير مطأطأ الرأس حتى يوم القيامة.. تظن نفسك عاليا عن الجميع بينما هناك في الطابق الثاني يدوس الناس على رأسك بأقدامهم!

إنك مذنب كل الذنب،كلكم مذنبون..ذلك السرير الذي لم يستطع مقاومة من يبطش عليه فاستمتع بكونه منبطح فهو مذنب،ذلك الدولاب الذي سمح للبشر بالإخلال بسلامه الداخلي فهو مذنب،تلك السجادة التي ضحت بنظافتها من أجل المحافظة على نظافة غيرها فهي مذنبة أيضا،ذلك الكتاب على المكتب من انتظر أن يحظى بفرصة أن يُقرأ حتى بهتت ملامحه من أثر الأتربة مذنب..حتى ذلك المصباح الذي يحترق لينير للآخرين الذين هم ذاتهم من يضحون به بمجرد أن يحرق فتيله مذنب أيضا.

يتجادلون فيما بينهم بينما أقف أنا وأرى الأحداث من منظور المشاهد،لا أهوى المشاركة وأقف منتظرا أن تنتهي تلك المهزلة وأخلد للنوم..ولكنها لا تنتهي أبدا تماما كما لا تنتهي وساوس ظلي!

(٢)

..بالرغم من أنني كنت أعاني منه ومن تلك الوساوس إلا أنني كنت جميلا جدا من الخارج ولم يلاحظ أحد بكثرة أنني أخوض حربا من الداخل كنت في كل مرة قادر على عدم المراهنة والخروج بنتيجة التعادل ولكن الوسواس وما يسببه لي من قلق وتوتر كان كفيلا بدخول التحديات شيئا فشئ وسرعان ما دخلنا أنا وهو في تحد جديد...

كان أبي نادر التعامل معنا وكان يحاول أن يبعدنا عنه بشتى الطرق..لم أكن أعلم السبب ولا أجد شيئا منطقيا لأفعاله تلك سوى أنه يكرهني لذا ونتيجة لأفعاله فقد كنت نادر التعامل أو التحدث معه..حتى مصاريفي كانت تحضرها لي أمي منه،لقد نجح بطريقة ما في إبعادي عنه!

ذات يوم وبينما كنت أظن أن الحياة تبتسم لي تتحول تلك البسمة لضحكة تحمل شيئا ما من سخرية القدر

..كان أبي مريضا جدا حيث جاءت سيارة الإسعاف وأخذته نحو المستشفى وذهبنا معه بطبيعة الحال،في غرفته لم يكن معه سوى أمي أما أنا وإخواني كنا ننتظر بالخارج حينما خرجت أمي وطلبت مني وحدي الدخول لأبي لأنه طلب ذلك..طلب مقابلتي والحديث معي بعد حوالي ثمانية سنوات من آخر حديث دار بيننا بشكل مباشر!

كنت مصدوم جدا وصاحب تلك الصدمة استيقاظ ظلي.. كانت رغبتي المبدئية في تلبية طلب أبي ولكن ظلي راهن على العكس..راهن على عدم تلبية طلب ذلك الشخص الذي كان يعيش معي في بيت واحد ولم يعرني اهتماما ولم يواسيني في لحظات حياتي القاسية بل ولم يهتم لأمري يوميا..ولكن نفسي كانت واثقة من تلبية الطلب لذا راهنت على قدرتي على نسيان ما مضى والدخول له،إنني أقرب له من أي وقت مضى..سرت نحو باب غرفته في المستشفى وأوشكت على الدخول ولكن هنالك شئ ما يمنعني..جبل يحول بيني وبين الدخول وإلقاء النظرة الأخيرة على والدي الذي شارف على الرحيل..لم أستطع تخطيه..لم أرى أبي للمرة الأخيرة

كان الجميع من حولي يظنونني ذو قلب من حجر ولكن على النقيض تماما..لم تكن لي معه ذكريات كثيرة..حتى أنني لم أعد أذكر أي من تلك الذكريات بحكم أنها من فترة طفولتي،ولكنني لم أكن لأتحمل هذا الموقف وأنا واقف بجوار السرير وأبي على فراش الموت..لم أشأ لعقلي أن يحمل تلك الذكرى لتكون خنجرا يغرز من تلقاء نفسه في قلبي كلما شع في عقلي وتذكرته..أو على الأرجح أن تلك الفكرة قد دعمت موقف ظلي في عدم الدخول لأبي.

(٣)

بعد مرور فترة وفي ذكرى الأربعين من وفاة أبي جلست مع أمي وكنا نتحاور في سيرة أبي..

سألتها عن سبب مقاطعة أبي لنا وعدم معاملته لنا معاملة الأب لأبنائه حيث كانت إجابتها صادمة لي بعض الشئ وفطر لها قلبي أيضا حينما ذكرت في حديثها أن أبي-رحمه الله- كان يعاني من الوسواس القهري أيضا مثلي تماما،كانت تراوده أفكارا غريبة وغير منطقية لدرجة أن وسواسه وسوس له بأذيتكم والتخلص

منكم بحجة أنكم قد تم استبدالكم أثناء فترة ولادتكم،كان مقتنعا مائة بالمائة أنها وساوس ولكن ما يفعله الوسواس وبطشه كان أعظم..كان يتجنبكم قصدا منه كان يخشى التعامل معنا خوفا علينا وخوفا من أن يؤذينا أو يلحق بنا الضرر حيث صنف مرضه أنه في مراحل متقدمة جدا

ذكرت لي ذلك على وجه الخصوص وقد أشارت لي بعدم التحدث مع أي أحد بخصوص ذلك الشأن

..هنا قررت أن أزور مكتب أبي حيث أخذت أقلب في المكتب في عدة نواح،إنه يشبهني تماما،يحب الأفلام التي أحب..يحتفظ بأشرطة الأفلام الأصلية لثلاثية "العراب" لماريو بوزو

ويقرأ لنفس الكتاب الذين أقرأ لهم..يحب دوستويفسكي ويحتفظ بسلسلة "الاخوة كارامازوف" في مكان خاص دلالة على أنها المحببة لقلبه

..في أحد أدراج المكتب وجدت ما يزيد عن ١٠٠ غطاء من زجاجات المشروبات الغازية المتنوعة والمتباينة في درجة قدمها!

إن ذلك يؤكد كلام أمي بالفعل!

عندما أمسكت بأجندة أبي وأخذت أقلب بها وجدت طلاسم غريبة جدا ولكنني لم أخض في قراءتها ولكن في آخر الصفحات التي كتب فيها أبي في الأجندة كُتب: ـ

"أخبروا إبني "ياسين" أن الأمر لم يكن بيدي وأنني كنت أحبه..أخبروه أنني كنت أعلم كل تفصيلة عن حياته دون أن يدري..أخبروه أنني حينما يذهب للجامعة أذهب لغرفته أشتم رائحة أنفاسه ورائحة ملابسه وأنني أراقبه في كل صباح حينما يخرج..أخبروه أنني أسعد بسماع صوته ويرفرف قلبي حينما أراه سعيدا..أخبروه أن الأمر لم يكن بيدي!"

..إن قلبي يكاد لو ينشطر لنصفين أو أن يتفتت قطعا صغيرة،وددت في تلك اللحظات لو أن أبي يدرك أن الأمر لم يكن بيدي أيضا..دائما ما ندرك الحقائق بعد فوات الآوان!

فوتوغرافيا

(١)

إنه لمن الجميل جدا أن يمتلك المرء أصدقاء وذلك لأن الحياة أصعب من أن تعاش بلا أصدقاء،أنا حقا أمتلك الكثير والكثير من الأصدقاء من كل محافظات مصر تقريبا،لدي أصدقاء لازلت أحتفظ بهم من المدرسة الابتدائية..وآخرون من الإعدادية والثانوية ولكن أكثر أصدقائي الباقين هم من أيام الجامعة.. ناهيك عن زملاء العمل والنادي وآخرون كثر.

إنني أهوى التصوير جدا،منذ الصغر أنا حريص على التقاط كل لحظة سعيدة أمر بها،ناهيك عن حبي لتصوير المناظر الجذابة مثل الشواطئ والبحار والجبال والغابات وعالم الحيوان ولكن أكثر ما أعشق تصويره تلك اللحظات التي أكون فيها مع أصدقائي المقربين ولأن تلك اللحظات كثيرة جدا قررت منذ

فترة أن أشتري كاميرا لتصوير مثل تلك اللحظات وبعد بحث وتمحيص وعدة مقارنات وتوفير بعض المال اشتريت "Canon HS SX620 PowerShot" لقد نصحني العديد من الأشخاص المحترفين بها وميزة إضافية لها سعرها المعقول والمناسب لي.

كانت أول رحلة أخوضها وأصدقائي حينما توجهنا نحو الإسكندرية قاصدين عدة أماكن كان أبرزها مكتبة الإسكندرية وقلعة قايتباي ولكن اللحظات الأكثر متعة كانت تلك التي تمشينا فيها على كوبري "ستانلي" ليلا مع هطول المطر وتصاعد بخار الماء الدافئ من أفواهنا ونحن نضحك ونمرح ونتذكر ذكرياتنا إبان فترة الجامعة وحتى بعدها،ضحكنا كثيرا حينما تذكرنا موقف أحد طلبة دفعتنا مع إحدى الدكاترة حينما أهداها "بكيني".. كان الجو مثيرا لتشغيل بعضا من أغاني "فيروز" خصوصا أغنية "يا سهر الليالي" التي ظللنا نرقص على نغماتها فترة ليست بالقصيرة ونحن نعيد تشغيلها مرة وراء مرة،بالرغم من نظرات المارة المليئة بعلامات التعجب إلا أننا استمرينا نرقص ونهرول كالثيران الطليقة،كان المنظر في قمة اللامسؤولية واللانضج

ولكننا عشنا اللحظة حتى أنني طلبت من أحد المارة أن يصورنا فيديو ونحن نرقص،نهاية التقطنا عدة صور بعضها مضحك وبعضها جميل،استعنت بأحد المارة لكي يلتقط لنا الصور بعدما طلبت منه ذلك.

(٢)

بعد شهر تقريبا ذهبنا في رحلة صيد على أحد القوارب حيث قررنا أن أقل من يصطاد سمكا يتحتم عليه دفع كل تكاليف الرحلة،كنا كهؤلاء المجانين في برنامج "سمكة التونة العنيدة" الذين يركضون في كل أرجاء المركب حينما تغمز الصنارة،غير أننا لم نصطد ولا سمكة تونة!

كل ما خرجنا به هو حفنة قليلة من الأسماك الصغيرة عديمة القيمة،ولسوء حظي كنت أنا أقلهم في عدد الأسماك التي تم اصطيادها مما يعني دفع كل تكاليف الرحلة بمفردي!

آه يالحظي..كانت التكاليف باهظة بالفعل وكبيرة على أن يتحملها شخص واحد بمفرده ولكنني كنت راضيا لأن المال الذي

دفعته بالفعل لا يساوي شئ أمام مقدار السعادة الذي حظيت به وأنا مع أصدقائي.

(٣)

في الليل جلسنا نتسامر ونتحاكى كل عن طفولته،أتذكر طفولتي جدا،لقد كانت طفولة مملة بعض الشئ ورتيبة جدا وخالية من أي مغامرة أو محاولة لكسر الروتين،كنت في صغري من هؤلاء الأطفال الذين يشاهدون مسلسلات الرسوم المتحركة كثيرا،الذين ينكبون عليها أمام التلفاز بالساعات لا مبالغين بمرور الوقت..ولما كانت تلك المسلسلات ناطقة باللغة العربية الفصحى بطبيعة الحال كنت أنا أحاول تقليدهم بتحدثي الفصحى في حياتي الواقعية فمثلا حينما أطلب من أمي أن تجهز لي وجبة الإفطار لا أقول لها "عايز أفطر يا ماما" بالعامية ولكنني أقول لها "هلا تجهزي لي الإفطار يا أماه" بالفصحى،كان الأمر في بدايته ينحصر بمنزلنا فقط ولكن سرعان ما خرج ليشمل المدرسة والشارع وسرعان ما لاحظ ذلك أبي قائلا لي أنه لابد أن أستخدم العامية لكي لا أنال استهزاء وسخرية العوام من الناس لأن ذلك

شيئا غريبا وغير معتاد في مجتمعنا..لقد كنت أحب ذلك الأمر- التحدث بالفصحى- ولكنني-رغما عني- توقفت عنه لأن أبي أمرني بذلك دون أن أحلل الأمر حتى أو أضعه على ميزان الخطأ والصواب..توقفت عنه لأن مجتمعنا يستغرب تلك الفكرة ولا يحب الاختلاف،في طفولتي أيضا أعتقد الأطباء أنني أعاني من التوحد..فعلا،لو رأيتني في طفولتي لقلت أني متوحد لا محالة،لا ألعب مثل الأطفال ولا أخرج من منزلنا ولا أطيق التعامل مع البشر..وبالرغم من ذلك كنت متفوقا جدا في دراستي ودائما ما أحصد أعلى الدرجات ما بين زملائي،إبان فترتي في مدرستي الابتدائية كنت أحب كرة القدم جدا وكنت أجيد ممارستها بشكل جيد إلا أن مدرس الألعاب خاصتي لم يختارني في فريق المدرسة المشارك في دوري المدارس وفضل ابن أحد أصدقائه علي بالرغم من أنني أفوقه قوة وسرعة ومهارة،ياللبشر! إنهم دائما غير منصفين ولا عادلين..أغلبهم ليس بالسوي نفسيا وأغلبهم تافه ويعيش من أجل مطامعه الخاصة،إنهم يستمرون في ممارسة غبائهم،يسيئون الظن،يكذبون..يفعلون ما لا يقدر الشيطان على

فعله وفي النهاية يلعنون الشيطان و يستعيذون بالله منه!

على كل..أنا لا أتذكر الكثير عن طفولتي لذلك لم أشاركهم ذلك الحديث ولكنني شاركتهم في الضحك بالطبع وكالعادة دائما ما تنتهي كل رحلة نخوضها بالعديد والعديد من الصور،طلبت من قبطان المركب أن يلتقط لنا الصور الشئ الذي قابله بترحاب كبير!

(٤)

بعدما عدت للمنزل التقطت جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتي وأخذت أفرغ ما على الكاميرا من صور لكي أحفظها على ذاكرة الكمبيوتر وبينما كنت أتصفح الصور لاحظت شيئا غريبا نوعا ما!

كل الصور التي التقطناها على كوبري "ستانلي"

كل الصور التي التقطناها خلال رحلة الصيد

لا يظهر بها أصدقائي! لا يظهر بها سواي،كنت وحيدا أرقص

حتى في مقطع الفيديو الذي طلبت من أحد المارة أن يصوره لي،كنت وحيدا أهرول وأرقص في الشارع وتراقبني عيون المارة!

لابد وأن تلك الكاميرا بها خلل ما،إنها تصر على أن تظهرني وحيدا! سأذهب بها إلى توكيل الشركة المصنعة لها غدا و سآخذ أصدقائي معي.

الآخرون

(١)

..لا شئ جديد سوى غرفة خاوية على عروشها

،ظلمة قد عفى عليها الزمن حيث أجلس

،أمامي: جهاز لوحي ملئ بـ مسلسلات لسفك دماء الوقت

،على يميني: هاتف متصل بـ "باور بانك" يستنشق منه بعض الطاقة لأن المقبس بعيد عن موضعي

،إلي أقصي اليمين: "قلة"قد ملأتها بـ الماء وضعتها بالقرب مني..ليس حبا في ماء "القلل" ولكن كرها في الخروج إلى ثلاجة بعيدة لا تدركها الأرجل،تحتاج إلى رحلة مرهقة للروح والجسد إلى أقصى الشقة،على الأقل تحتفظ القلة ببرودة الماء

.. في الوقت الذي ترتفع فيه درجة حرارة ماء زجاجة "البيبسي" التي تحولت إلي إناء لحفظ الماء في الثلاجة

،وقناطير مقنطرة من اللب السوري وبعض "الكاجو" أنا أعشق "الكاجو"!!

،وأخيرا: ها أنا ذا

،،قد اندفنت بين كل هذا

..شاب في منتصف الثلاثينيات قد ذاق مرارة الفشل عدة مرات

..اشاهد مسلسل صراع العروش بالخمس أو الست ساعات لأنهيه في أسرع وقت ممكن وانتقل لآخر

..انتظر رسالة لن تأتي ولن أذهب بها

..أتجرع من ماء القلة من حين لأخر كأني أتجرع خمرا

..أتناول اللب المملح الذي قتلت ملوحته شفتاي حتى تشققتا

..أفعل هذا بالساعات في ظلمة الليل،لا يقطع ذلك الرتم الرتيب إلا إشارة عصبية تخبرني بـ إمتلاء المثانة ببعض الماء المحتوي على بعض اليوريا والأملاح والمواد الاخرى،أقوم قاصدا الحمام و أنا ألعن المثانة واليوريا وكل شئ،تبا.. لقد كلفني ذلك رحلة مملة إلي الشرق الأدنى من الشقة

..على العموم،ها أنا ذا في دورة المياه،أفكر في مستقبلي وفي ماضيا وحاضري..لما لا و ٨٠٪ من أفكاري ومشاريعي قد راودتني بينما اقضي حاجتي في دورة المياه..أظن أنني أعلم الآن لماذا لا تنجح تلك المشاريع أو هذه الأفكار!

(٢)

إنني أقيم في شقتي وحدي منذ خمسة سنوات أو أكثر،لقد سئمت الوحدة جدا لدرجة أنني فكرت مؤخرا في إشراك أناس يقيمون معي في نفس الشقة التي يوجد بها ثلاثة غرف،غرفة كبيرة بها سرير واحد وغرفتين أكبر حجما بكل منهما سريرين.. أي أن المجموع خمسة سرائر،أقيم أنا في الغرفة التي تحوي سرير

واحد فيما تظل الغرفتين الأخرتين فارغتين!

نشرت إعلانا في إحدى الصحف بمواصفات الشقة طالبا أربعة أفراد للعيش معي..سيكون هنالك فائدتين من تلك الخطوة،أولهما أنني سأحصل على بعض منهم والثانية أنني لن أصبح وحيدا بعد اليوم.

بعد ثلاثة أيام تلقيت مكالمة هاتفية من أحد الذين قد رأوا الإعلان ويودون لو يقيمون معي وقد اتصل بغرض أخذ موعد لمعاينة الشقة،اتفقت معه أن غدا سيكون مناسبا جدا أو ربما لو وددت أن تأتي اليوم فلك ذلك أيضا ولكنه فضل أن يأتي يوم غد!

جاء وقد كان شخص انيق جدا يرتدي ملابس فاخرة ويضع العطور وتظهر عليه ملامح الطبقة الأرستقراطية،عاين الشقة والغرفتين ولكنه سأل عن الغرفة ذات السرير الواحد ولما رآها حدثني برغبته في المكوث بتلك الغرفة..ليس لدي مانع على الإطلاق في ذلك لذا اتفقنا على الأمور المادية وعلى أنها سيجلب متاعه من يوم غد.

تلقيت مكالمة أخرى من شاب يريد غرفة بسريرين وقد جاء وزميل له ليعاينا الغرفة..اتفقنا على الأمور المادية كذلك ورحلوا حيث اتفقنا أنهما سيقيمان معي من يوم غد،يبدو أنهما صديقين جدا!

في التالي اتصل بي أحدهم كذلك وكان يريد غرفة بسريرين ولكن المتاح لدي سرير واحد في غرفة بسريرين لذلك لم تنجح الأمور..ولكن سرعان ما حصلت على فرد يريد سرير واحد فقط لتكتمل كل غرف الشقة!

(٣)

في اليوم الأول من الإقامة معهم قد تعرفنا على بعضنا البعض وجلسنا نتحاور في أمور مختلفة..كانت أعمارنا متقاربة لذلك كنا نتفهم بعضنا جدا..الشيء الذي سهل من سريان الحوارات والنقاشات بيننا وسرعان ما اندمجنا مكونين مجتمع صغير ناجح!

بعد فترة وجيزة بدأت تظهر بيننا بعض الخلافات الصغيرة

التي سرعان ما تحولت لخلافات كبيرة،كان الصديقان وهما من الطبقة المتوسطة أو تحت المتوسطة يحقدان بشكل كبير على ذلك الرجل الذي يقيم في الغرفة التي بها سرير واحد لأنه من الطبقة الارستقراطية..كان ذلك يظهر من خلال حدتهم معه أثناء الحديث وتعنتهم في بعض المواقف،في بعض الأحيان كان يشتد الحديث لدرجة كبيرة.

في يوم ما وقد خرجت مع زميل غرفتي ولم يكن بالشقة سوى الصديقين و الرجل الارستقراطي،عدت لأجد الصديقين قد قتلا ذلك الرجل!

كان بإمكانهما الهرب ولكنني كنت أحتفظ بصور هوياتهم بالطبع وأرادوا أن يسويا الأمر معي دون تدخل من أي جهة أخرى كالشرطة مثلا،أخبروني أن ذلك الرجل لا يعمل وقد ورث أمواله من أبيه وبالتالي لن يسأل رب عمله عليه ولن يلاحظ أحد اختفائه لأنه ليس له أسرة أيضا!

كنت مستاء جدا مما حدث في شقتي ولم أستطع وقتها أن

أبلغ الشرطة لأنهما قد هدداني..اتفقت معهما على التخلص من الجثة ومن ثم جمع أغراضهما والرحيل عن الشقة في أسرع وقت ممكن فيما سأكتم السر.

(٤)

كان زميل غرفتي مستاء جدا من طريقة تصرفي معهما وأنني لم أبلغ الشرطة وتركتهما يرحلا وكأن شيئا لم يكن.. كان يصر على إبلاغ الشرطة واتخاذ الإجراءات اللازمة ولكنني اتفقت معه اتفاق عظيم،سنخرج عملة معدنية..سيختار هو وجه فيما سيكون الآخر من نصيبي،في حال جاءت القرعة في صالحه سنبلغ الشرطة وسيشهد هو معي بأنني تركتهما يرحلان لأنهما هدداني بالقتل لو أبلغت الشرطة،أما لو جاءت القرعة في صالحي فسيرحل من الشقة دون أدنى شوشرة..وافق وقد أجرينا القرعة التي كانت في صالحي ليلم أغراضه هو الآخر ويرحل!

مر بعد ذلك ثلاثة أشهر كنت وحيدا في شقتي خلالهما أيضا،رأيت خلالهما ما لم يره شخص على ظهر المعمورة،أشباح

وعفاريت من كل حدب وصوب،تفعل أشياء غريبة ولكنها لا تحرك ساكنا ولا تضرني في شئ وأنا بدوري قد اعتدت على مثل تلك الأمور ولكن حدث في الفترة الأخيرة أنها بدأت في تحريك السواكن حيث أستيقظ من نومي لأجد البوتوجاز-مثلا- في الحمام بدلا من المطبخ أو الثلاجة تنام بجانبي على السرير أو أجد الدولاب-مثلا- في البلكونة..

وصل الأمر بتلك الأشباح أنها فاجئتني ذات صباح وقد استيقظت على رائحة غريبة كانت رائحة الدهانات الجديدة التي قد دهن بيها صالون منزلي!

أنا لست مستاء من تلك الأشباح على الاطلاق،أنها تخلق نغمة وروح في أرجاء الشقة في ظل وحدتي داخلها.

حصلت أيضا على عمل جديد..يبدأ يومي باستيقاظي يوميا للذهاب للشركة لأنكب على الأوراق من الساعة التاسعة صباحا وحتى الرابعة عصرا!

لم أحصل على أصدقاء مقربين من زملاء العمل للدرجة

التي تجعلني أخرج معهم في نزهة أو رحلة في أجازة ما ولا حتى للخروج للتسكع،علاقتي بهم سطحية لدرجة لا يتخيلها أحد،لا يروقون لي ولست مناسبا لهم،لذلك فمن الطبيعي أن يكون جدول يومي فارغا من وقت عودتي من العمل وحتى ذهابي للعمل في اليوم التالي،نادرا ما أكسر ذلك الروتين بالتجول في الشوارع وحدي مرتديا سماعات الأذن مستمعا لبعض الأغاني أو الذهاب للسينما وحدي أيضا،أحيانا أخرج لمشاهدة مباريات كرة القدم وحدي!

(٥)

كنت أتواصل يوميا مع والدتي التي دائما ما تتدرج خلال حديثها في شرح فوائد الزواج وكيف أنني سأحصل على الراحة النفسية من خلال شريكة الحياة المناسب والتي هي من وجهة نظرها "شيرين" بنت خالتي..لذلك ما عدت أتواصل معها يوميا لأنني مضغوط في عملي هذه الأيام،تكفي مرة واحدة في الأسبوع لسماع أحاديث أمي عن العشرين فائدة الكامنة في الزواج من "شيرين"..ألا لعنة الله على شيرين! إنني أفضل الزواج من أحد أشباح شقتي على الزواج منها!

بالحديث عن الأشباح،إنهم يعدون الطعام والمشروبات ولكنهم على درجة عالية من القذارة تجعلهم لا يغسلون الأواني بعد استخدامها،كما أن لهم مكانا خاصا ينامون فيه..تلك الغرفة التي نادرا ما أدخلها في شقتي،أعتقد أنهم يبيتون بل يصطحبون معهم المأكولات والمشروبات إليها،في مرة وجدت أنهم قد اصطحبوا معهم جهازي اللوحي واستنتجت انه كان بغرض مشاهدة بعض الأفلام أو المسلسلات حينما رأيت أطباق الفشار على سرير الغرفة الأخرى!

في الآونة الأخيرة كنت أصطحب معي بعض أوراق العمل إلى شقتي حيث أن الوقت الذي اقضيه في الشركة ليس كافيا لإنهاء بعض الأعمال في تلك الفترة من السنة،لطالما كان زملائي الأشباح في الشقة على درجة عالية من احترام الآخر واحترام خصوصية الآخر ولكن في الفترة الأخيرة لم يصبحوا كذلك!

لقد تجرأوا على أوراق العمل الخاصة بي بل وحرقوا بعضها الأمر الذي أصابني بالجنون،كيف سأوضح موقفي من غياب تلك الأوراق لرب عملي؟ أسأقول له أن بعض الأشباح قد قامت بحرقها أم أن بعض الكائنات الفضائية قد سرقتها؟ لا أدري ولكنني لم

أعد أحتمل الأمر،قصصت قصتي على أمي وكان اقتراحها أن أتي بشيخ للشقة ليصرف منها الجن!

استجبت لذلك الاقتراح وحصلت على رقم أحد المشايخ من على الأنترنت وتواصلت معه،جاء وتفحص أمر الشقة وقال أن شقتي يقيم بها ليس جنيا أو اثنين أو ثلاثة!

يقيم في شقتي قبيلة كاملة من الجن!

اتفق معي أنه سيتقاضى مبلغ ٧٠٠٠ الآف جنيه مقابل صرفه للقبيلة بأكملها بالإضافة إلى أنني سأتحمل تكاليف البخور وغيرها من الأدوات، لم يكن أمامي خيار آخر فوافقت!

جاء الشيخ وأشعل البخور وقرأ طلاسيم غريبة وفعل أشياء غريبة أخرى ورحل،نجح الأمر فيما يقارب الأسبوع ومن ثم عادت الأمور لسابق عهدها إنهم يحرقون أوراق أكثر فأكثر،حاولت التواصل مع الشيخ ولكن بلا فائدة "الرقم المطلوب مغلق أو غير متاح!" للأسف لم أحصل على شهادة ضمان من الشيخ!

(٦)

لقد طفح الكيل!

اتفقت مع شركة ما لتركيب أربعة كاميرات مراقبة لمراقبة الشقة بالكامل ونمت على أمل اكتشاف ما يحدث.

استيقظت في صباح اليوم التالي وقد وجدت الكاميرات قد هشمت بالكامل ولكنها على الأرجح قد سجلت شيئا ما على جهازي اللوحي الذي هممت بالتقاطه ومن ثم تشغيل الفيديو الذي يبدو ساكنا حتى آخر أربعة دقائق فيه!

إنه يقوم من مضجعه،يذهب نحو المطبخ،يعد بعض الطعام،يأكل الطعام وهو يشاهد التلفاز،يلتقط أوراق العمل الخاصة بي،يذهب للمطبخ،يلتقط أعواد الثقاب ومن ثم يهم بحرق الأوراق،يحمل يد "الهون" ويذهب ناحية الكاميرات يهشمها واحدة تلو الأخرى وهو يخفي وجهه،يأتي الدور على الكاميرا الأخيرة ليظهر وجهه أمامها قبل أن يهشمها قائلا في صوت يملؤه السخط "أنا أكره الوحدة،أنا أكره العمل"

(٧)

..ماذا؟!

لقد كنت أنا،أنا الشخص الذي يظهر في كاميرات المراقبة!

إنني مصاب باضطراب الهوية الانشقاقي؟!

يوجد في مدخل العمارة كاميرا مراقبة أيضا وأمام كل باب شقة من شقق العمارة،يمكن مشاهدة ما تسجله الكاميرات من خلال الإنترنت،ذهبت للبواب وعرفت منه الكيفية وعدت لما سجلته كاميرا باب شقتي منذ حوالي الثلاثة أشهر ونصف.. حينما كان يقاسمني الشقة أربعة أفراد آخرين..ظللت أشاهد تلك الفترة بأكملها منتظرا رؤيتهم ولكن لا أحد يخرج ولا يدخل من باب شقتي سواي..لم يكن في شقتي سواي،لا بشر ولا أشباح..لم يكن هنالك سوى أنا!

إنني مصاب باضطراب الهوية الانشقاقي!

فينسينت

(١)

أنا أعمل هنا منذ ١٧ عاما،مررت بمئات الحالات المصابة بأمراض نفسية وعقلية ولكن كان أغربها على الإطلاق حالة عماد الأمير أو فنسنت،إنني لما أرى في حياتي شخصا لا ينام خلال يومه إطلاقا إلا بعد تناول الأدوية اللازمة حتى أنه بعد فترة من تناول الأدوية لم تعد تجدي نفعا حتى بعدما قرر الأطباء زيادة الجرعات،لقد أصبح لا ينام إطلاقا لذلك هو يعاني من انسومنيا أو إرق ولكنه لا يشتكي منها مطلقا ولا تظهر عليه أعراض قلة النوم،هو يعاني أيضا من شيزوفرينيا أو انفصام حيث يعيش بشخصيتين مختلفتين تماما،الأول هو عماد الامير ذو الإثنين وثلاثين ربيعا وهو شخص هادئ جدا ولا يثير المشاكل مطلقا

ويتلقى علاجه بانتظام دون مقاومة تذكر وينشط من الساعة الثامنة صباحا وحتى الثانية عشرة بعد منتصف الليل،وعلى النقيض تماما هناك فينسينت فان جوخ الشخصية الثانية التي تقيم في جسد عماد وعمره سبع وثلاثون ربيعا وينشط من الساعة الثانية عشرة صباحا وحتى الثامنة صباحا وهو يعاني من الاكتئاب الشديد ودائما ما يحاول الانتحار ولا يتلقى علاجه بانتظام بل ويقاوم أشد المقاومة إبان تلقيه العلاج،حتى أنه بتر أذنه منذ ثمانية أشهر رغم عدم توافر أي أدوات حادة في زنزانته والتفسير الوحيد لذلك أنه بترها بأظافره المجردة،ليس هذا هو الشئ الغريب عنه لكن الأغرب من ذلك هو قدرته على التنبؤ بالموت!

استطاع فينسنت التنبؤ بموت ثلاثة من زملائه المرضى من قبل وكان آخرهم "يوسف"!

كان العنبر هادئ في ساعة متأخرة من الليل حتى بدأ يصرخ فينسنت بصوت صاخب "بكرة بكرة" "بالليل بالليل" ذهبنا باتجاهه أنا والحراس لنفهم ما يقول،سألته "ايه هو اللي بكرة بالليل؟"

ليرد علي "يوسف هيسافر"

-هيسافر فين؟

-سيغادر نحو الربيع

أخذ يضحك بصوت جهور تملأه الفرحة!

فعلا لم يأتي صباح اليوم التالي حتى وجدنا "يوسف" ميتا!

(٢)

..كل من بالمستشفى يتعجب من قدرته على معرفة مثل ذلك الشئ،كان الموقف يمر في كل مرة مرور الكرام حتى قرر أحد الأطباء تقصي الحقائق ومعرفة ما يدور في العنبر،لقد فرض حراسة على مدار اليوم على عماد بل وأنه كان يشرف على اعطاءة الأدوية بنفسه وبدأ عماد في الاستجابة للأدوية وأصبحنا نشاهده في مشهد غير معتاد وهو نائم بل وبدأ في التجاوب مع الطبيب وكانوا يخوضون أحاديث فيما بينهم تصل فترتها للنصف ساعة

أو أكثر أحيانا!

سمعت من أحد الحراس أن الطبيب كان يستفسر منه عن قدرته على معرفته بموت أحدهم عما قريب وأن عماد وصل لدرجة عالية من التجاوب مع الطبيب لدرجة أنه أعترف له أنه هو من قتلهم بنفسه ولكن الطبيب لم يأخذ كلامه على محمل الجد لأن هناك استحالة ما بين عماد وقدرته على الوصول لهؤلاء المرضى بسبب الأبواب الموصدة والحراس على كل باب ومشرفين الأدوار!

بدأ الطبيب يستفسر منه عن سبب قتله لهم وهو يدرك أنه ليس الفاعل حيث كان رده كالآتي

"لقد قتلتهم لأحررهم مما هم فيه من أثر العلاج وحياتهم الروتينية الرتيبة،قتلتهم لأنهم يستحقون الحياة،قتلتهم لأغفر لهم و أنقيهم من خطاياهم فالأول قد قتل زوجته والثاني ذبح أبنائه والثالث "يوسف" حاول الانتحار عدة مرات،قتلتهم لأنهم فقدوا إنسانيتهم،قتلتهم بسبب عدة عوامل متناقضة لن تفهمها

أنت كونك طبيب معالج وليكن بعلمك أن أحدهم قد مهد لي الطريق وشجعني على ذلك ولم أقم به وحدي"

(٣)

..كان الطبيب مذهولا من جواب فنسنت،كيف له أن يعلم ملفات المرضى بهكذا طريقة،كيف له أن يعرف أن أحدهم قتل زوجته وآخر قتل أبناءه وثالث حاول الانتحار؟!

إنه فعلا ولا محالة أنه أحدهم يساعده على ذلك،قرر الطبيب فتح تحقيق عاجل في الأمر وأنه سيشرف عليه بنفسه فور عودته من إجازته بعد يومين.

ولأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن،حدث في اليوم التالي أن وجدنا فنسنت ميتا في زنزانته أثر تلقيه لعيار ناري بالرغم من أننا لم نسمع صوت ضجة العيار الناري مطلقا ولم نشاهد أحدا في المستشفى في ساعات الليل المتأخرة لأن الحراسة كانت مشددة على زنزانة فنسنت تحديدا،إننا لم نعلم حتى أهي حادثة انتحار أم قتل تلك التي راح ضحيتها فينسنت!

..كتب على جدار زنزانة فينسنت "عزيزتي جوانا،سأغادر نحو الربيع"

من؟ جوانا؟ لقد سمعت أو رأيت ذلك الاسم من قبل! ولكن أين؟

ذهبت أقلب في حقيبة أغراضي في غرفة الاستراحة حيث وجدت اسم "جوانا" مدون على عدة أشياء منها الأجندة القديمة الخاصة بي ومحفظتي الجلدية وفي قلادة المفاتيح!

قلادة المفاتيح؟ هنالك مفتاح إضافي في القلادة،لمن هذا المفتاح وما سر اسم جوانا،أول ما خطر على بالي هو تجربة المفتاح على باب زنزانة الراحل "فنسنت"،انتظرت حتى ساعة متأخرة من الليل لأختبر المفتاح وإذا به يفتح!!

فهرس الموضوعات

مقدمة.. ..... ٩
المؤلف..... ٩
الظل ١١
أقلام التجربة ٢٣
وسواس سافل..... ٣٣
مكالمة الصباح..... ٤١
انشقاق ٤٨
بعد الآوان..... ٦٣
فوتوغرافيا ٧١
الآخرون..... ٧٨
فينسينت ٩١
الفهرس..... ٩٧